

القدس والإسلام - دراسة في قداستها من المنظور الإسلامي أحمد الحروب

١٩٦ صفحة - ٦ فصول

مؤسّسات الدراسات الفلسطينية
بيروت ٢٠١٣

الأشعار التي تحتوي على كلمات نصارى ونصرانية. ووعي المتنصرين من أبناء الجزيرة العربية بمؤسّسات الديانة المسيحية. كالصوامع والبيع والكنائس. إلى جانب مدح الشعراء للديانة المسيحية كالنابغة الذبياني وربطها بمدينة القدس التي جعل الشعراء منها مستقر الأسر الحاكمة من آل غسان؛ وهناك مؤشر آخر على حجم انتشار المسيحية بين القبائل العربية، وفق ما أورده كتابات علماء ومؤرخي القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي كقبائل ربيعة، وغسان، وقضاعة، وبني أسد بن عبد العزى، وبطون من قبيلة تميم، وطيء، ومذحج، وبهراء، وسليح، وتنوخ، ولخم، أما من جانب الإطار الجغرافي، فقد شمل الانتشار مناطق كل من البحرين، واليمامة ونجران في اليمن، وشمال العراق؛ هذا إلى جانب ربط حجم الانتشار بما شهده أواخر القرن الرابع الميلادي من تحويل القيصر الروماني أوغسطين دين الامبراطورية الرسمي إلى المسيحية.

ساهمت العديد من العوامل في انتشار المسيحية في البيئات العربية، فكان من بينها: حواريو المسيح؛ والبيع والصوامع والأديرة؛ وتجارة الرقيق من خلال اقتناء الجوّاري المسيحيات، ويصل الكاتب إلى أن عناصر القداسة الدينية تجاه مدينة القدس، بقيت حاضرة في أذهان الأجيال العربية بصورة مستمرة حتى مجيء الإسلام، الذي شكّل فيما بعد ركيزة ثالثة لقداسة المدينة.

أصبحت القدس في المنظور السياسي للإسلام أحد المحاور الأساسية في مراحل تشكّل الدولة الإسلامية، ومنطلقاً تحدت بناءً عليه المعالم السياسية لنظام الخلافة الإسلامي، وذلك من خلال زيارة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب للمدينة، وبما حملته في طياتها من مدلولات وأهداف، فحضور الخليفة إلى المدينة سواء كان مشروطاً من البطريرك، أو نتيجة التقدم العسكري الإسلامي على الجبهة البيزنطية، لا يُخفي ما تضمّنه من أهمية دينية في المنظور الإسلامي إلى المدينة، كونها قبلة المسلمين الأولى ومسرى النبي؛ وتمثلت الأهمية السياسية للمدينة في زيارة أعلى مرجعية دينية وسياسية إسلامية، تكلّت بصلح بيت المقدس وبما احتواه من ضمانات لسكان المدينة المسيحيين والتعهد بعدم إقامة اليهود فيها، وبما شهدته المدينة من تحولات، بحيث أصبحت أول مَصْر بالمفهوم الإداري لإقامة المقاتلين المسلمين، وثاني دار هجرة بعد المدينة المنورة، ووضع حجر الأساس لبناء المسجد الأقصى، الذي شهده الخليفة عمر بن الخطاب في إحدى زيارته.

وهو عبارة عن دراسة في قداسة مدينة القدس من المنظور الإسلامي. الكتاب على قدر من الأهمية، نظرًا إلى الغياب شبه التام للدراسات العربية المتخصصة فيما يتعلق بعلاقة الإسلام بمدينة القدس، مقارنة بالدراسات المكتوبة بلغات أخرى، سواء المختصة بعلاقة القدس بالإسلام أو باليهودية والمسيحية. يبدأ الكاتب بالحوض في العلاقة العربية بمدينة القدس السابقة للإسلام من خلال الموروث الوجداني، ثم ينتقل إلى القدس في المنظور السياسي للإسلام، والقداسة الدينية التي حظيت بها، وما تضمنته من روافد القداسة سواءً مدافن الأولياء والصالحين، أو أدب فضائل بيت المقدس، إلى أن يختتم بموضوع القدس وفريضة الجهاد.

كان حضور مدينة القدس في وجدان الأجيال العربية المتعاقبة بصورة متواصلة في الجزيرة العربية ومحيطها من خلال الموروث الفكري الديني والوجداني العربي، القائم على علاقة القدس وفلسطين بعقيدة كل من النبي إبراهيم التوحيدية، ومن بعده المسيح عليهما السلام، وهي كركائز تبلورت بين مدينة القدس والأجيال العربية المتعاقبة على امتداد العصور في الروايات الدينية المكتوبة في العهدين القديم والجديد، وفي الروايات الشعبية الشفوية.

يقدم الكاتب مؤشرات انتشار الديانة المسيحية في نفوس أبناء المجتمع العربي قبل الإسلام، من خلال

* طالب دراسات عليا في التاريخ الإسلامي في الجامعة العبرية بالقدس.

أصبحت القدس. من حيث الإجراءات السياسية. عاصمة فلسطين من خلال جعلها مركز الجزء الثاني لجند فلسطين. وأعطيت فلسطين خصوصية إدارية. فالوالي يعيّن من الخليفة نفسه. وتجسدت أهمية القدس في العهد الأموي من خلال اهتمام معاوية بن أبي سفيان بالجوانب العمرانية والسياسية فيها. حيث قام بتوسيع المسجد الأقصى ونُصّب المنبر الخاص به: واهتمامه بالإمامة والخطبة في المسجد الأقصى. وواضح ما يحمله ذلك من مضامين سياسية ودينية: وأيضاً من خلال تشجيع الإقامة والسكن في المدينة. لقد جرى تحويل القدس إلى عاصمة الخلافة الإسلامية بإعلان معاوية نفسه خليفة. وأخذ البيعة من على منبر المسجد الأقصى: وإنشاء دار ضرب النقود في المدينة: وإقامة دار الإمارة في الجهة الجنوبية والجنوبية الغربية للحرم الشريف: واتباع الأمويين سياسة ثابتة تجاه المدينة: ومعلوم أنها بقيت عاصمة لجند فلسطين حتى نقلت إلى الرملة في الثلث الأخير من العهد الأموي. أصبحت القدس أيضاً على قدر من الأهمية. فيما يتعلق بمعيار شرعية الحكم في نظام دولة الإسلام. من خلال جعل امتلاك الحَرَمَانِ المكي والقدسِي شرطاً لشرعية الحكم. والمقصود به المسجد الحرام والمسجد الأقصى. وبميزهما الكاتب عن مصطلح الحرمين الشريفين في فلسطين. الذي أطلق على حرمي القدس والخليل بعد استرجاع الأيوبيين مدينة القدس من الصليبيين.

يخصص الكاتب فصلاً كاملاً للبحث في القداصة الدينية لمدينة القدس النابعة من ورود ذكر المسجد الأقصى كتحديد جغرافي محاط بالبركة في الآية الأولى من سورة الإسراء وغيرها من السور القرآنية. ثم في الحديث النبوي من بين المساجد الثلاث التي يُشَدُّ الرِّحَالُ إليها. ثم يستفيض في محاور قداصة بيت المقدس التي شكّلت التطبيق العملي لتلك الفكرة. فالقدس أولى القبلتين. وهناك علاقة موثقة في القرآن الكريم. تلامس حدود المعجزة. بين المسجد الأقصى والإسراء. فالرواية الإسلامية ترى أن مدينة القدس هي التجسيد الطبيعي للمسجد الأقصى. في حين أن الرواية الاستشراقية. رفضت هذه الرؤية فترة من الزمن من دون إعطاء دلائل. ثم ما لبثت أن تحوّلت نحو الإقرار بذلك التجسيد.

في الآية الخاصة بالإسراء تثبتت للقداصة من خلال مفردات الآية ودلالاتها المعنوية. يشير الكاتب إلى مفهوم قدس الأرض وقدس السماء من خلال الصورة

المركّبة في الرواية الإسلامية للمدينة المقدسة التي يختلط فيها العنصر الأرضي بالعنصر السماوي. ومرّها معراج النبي من مدينة القدس إلى السماء السابعة حيث كعبة السماء. الأمر الذي أعطى المدينة شرفاً لم تحظ به مدينة أخرى من مراتب القداصة.

شكّلت قبة الصخرة أقدم معالم العمارة الإسلامية وثالث محاور القداصة بعد القبلية والإسراء. إلى جانب الرؤية الأموية للقداصة. واتخاذ الشام قاعدة للحكم وتعميم مكانتها الدينية على حساب أقاليم الإسلام الأخرى. وما تلا ذلك من إصرار أموي على امتلاك عناصر القداصة الدينية. الخاصة بالحجاز وإفراغها في مدينة القدس كسياسة أموية رسمية تجاه تلك القداصة. وهناك عدد من الروايات المتعلقة بإعطاء قبة الصخرة مكانة الكعبة وجعلها مكاناً للحج. كرواية يعقوبي وما حملته من أصداء في المصادر المتأخرة. التي نُفيت من عدة باحثين بفعل عدم تطابقها مع السياق التاريخي للأحداث. إضافة إلى تأثير ميول يعقوبي المذهبية في تناوله للأحداث.

يشير الكاتب إلى أنه بالرغم من صمت المصادر فترة طويلة فيما يتعلق بتأدية فريضة الحج في القدس عوضاً عن مكة. إلا أنها ما لبثت أن نطقت بذلك في القرن الحادي عشر الميلادي في كتاب سفرنامه للرحالة ناصر خسرو. مع الأخذ بالاعتبار عدم ورود مناسك الحج كاملة من ناحية. ومن ناحية أخرى أن طقوس الحج كالوقوف أو التعريف لم تقتصر على مدينة القدس. بحكم ممارستها في مدن أخرى. وسابقة على الصراع بين الأمويين وابن الزبير. أما الطواف الذي كان يتم في قبة الصخرة كان على خلاف طواف الكعبة. ويربطه الكاتب بطقوس العرب قبل الإسلام. ويشير أيضاً إلى ظاهرة زيارة الحرم القدسي لإتمام فريضة الحج. كأحد الطقوس التي استمرت من عهد الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله. حتى منتصف القرن المنصرم.

هدّد قيام عبد الملك بإنشاء مشروع قبة الصخرة في ظل مناخ سياسي وعسكري. حكّم الأسرة الأموية. لكن أولويات عبد الملك في التصدي لخطر البيزنطيين وافتتان المسلمين بالفخامة والأبهة في المعالم والمؤسسات المسيحية في بيت المقدس هي ما دعت إلى ذلك. بفعل الاختلاط الديمغرافي بين المسلمين والمسيحيين في المدينة. وما تبلور عنه من مفاهيم الانفتاح لدى أبناء الجيل الثاني من المسلمين. فإشغالهم عن الافتتان هو الحل الذي يبدو بصورة بارزة في رموز القبّة ومدلولاتها كالمكان والموقع والشكل الذي يسميه الكاتب بالتدوير والتقيب. الذي استُعيّر

من النمط المعماري لكنائس بلاد الشام. إضافة إلى الزينة والنقوش الإسلامية الداخلية المستخدمة التي تؤكد قداسة المكان وتعظيم الإسلام.

إن رواج فكرة قداسة المسجد الأقصى وتعثرها نتيجة بعض التوجهات التي ربطت معيار القداسة الدينية بالصلاة في المكان. ما لبث أن ووجه بالحديث الذي ساوى مكانة الحرم القدسي وقيمته بالحرم المكي. وبتفاعل فئات المجتمع الإسلامي لا سيما العلماء مع فكرة قداسة المدينة من خلال الوفود من شتى الأقاليم الإسلامية. تراجعت في فترة لاحقة أحاديث القداسة وأخذت الممارسات الدينية الشعبية بالظهور في محيط الحرم الشريف. كممارسات سرية الأرض وصلاة الرغائب. وصلاة رجب التي لم ينجح الفقهاء في إيقافها.

تعززت القداسة الدينية من عدة روافد. منها دفن الموتى والقبور. لاسيما مدافن الأولياء والصديقين. مشاهير العلماء والقادة. مما أضاف بعداً آخر إلى القداسة. من منطلق أن ظاهرة تقديس القبور في السياق الإسلامي ذات طابع ديني. ومرتبطة بالفئة التي ينتمي إليها المدفون. وكتكريم له حرّم الإسلام مسّ القبر أو نقل الرفات. إن زيارة قبور الأولياء التي تبلورت عن الإيمان بقدسيتها. حوّلت القبور إلى محجات وأحيّت المعتقدات الشعبية. من ناحية أخرى ارتبطت قداسة القبور بعيد سياسي يدلل عليه الكاتب من خلال حادثة النهروان. التي قتل ودفن فيها قادة الخوارج وتحولّها إلى مزار لأولئك القادة. فعمل الأمويون على منع دفن الخوارج في بلاد الشام. لكي لا تتحول المدافن إلى مزارات.

في حالة القدس ارتبطت نخب المجتمع الإسلامي بالمدينة من خلال الإقامة للعبادة. حتى أن يوافقهم الأجل. انطلاقاً من الحديث النبوي الذي جعل من بيت المقدس أرض المنشور والمحشر. وعلى مستوى الحكام. فقد طلب أبناء الأسر الإسلامية الحاكمة الدفن ببيت المقدس. من بينهم آخر ملوك بني الأغلب. الذي كان في شمال أفريقيا. ومن بينهم أبناء الأسرة الإخشيدية. وقد استمر هذا التقليد في العهد المملوكي في فئتي الأمراء البطالين والطراخين. على سبيل المثال وليس الحصر. وفي مجمل الأمر لم يكن أبناء هذه الأسر من العرب. وذلك لما في عقيدة الدفن في بيت المقدس صلة بالحشر والبعث والافتداء بسنة الأنبياء ولما للدفن في القدس من فضل.

آخر روافد القداسة أدب الفضائل أو ما عرف بفضائل بيت المقدس التي بلغت تسعة وأربعين مؤلفاً. فهذا الأدب بوجه عام قائم على تحوّل انتماء الأفراد من القبيلة

إلى المدينة. وما تبلور عن حماسة العلماء والفقهاء والسياسيين تجاه بلاد الشام. فاستقطبت مدينة القدس في القرن الهجري الأول. رواة الحديث وبعض الفقهاء الذين عملوا على الترويج لقداستها الدينية وأفضليتها على باقي المدن.

يخوض الكاتب في مسألة تصنيفات أدب الفضائل المتعددة بين الباحثين بما احتوته من تعميم وتحديد. مع الإشارة إلى الخلل في التصنيف الذي لم يعط اعتباراً للخلفيات التاريخية والاجتماعية قبل الإسلام. فيرى الكاتب أن هذا الأدب يدور محوره حول تأكيد أسبقية القداسة الدينية للمدن. وهو ما تجلّى في مصادره وفحوى محتوياته. التي اعتمدت على القرآن والسنة النبوية وسنن الصحابة والتابعين وقصص الأنبياء وكرامات الأولياء والصالحين. ثم إن مضامين وغايات مادة الفضائل متصلة بالقداسة الدينية للمدينة المرتبطة بأحد الأنبياء ثم النخب الإسلامية من الصحابة والتابعين والعلماء والفقهاء إلى جانب الأحاديث التي تشير إلى الحشر والنشر وعلاقة الأنبياء ببيت المقدس.

ينتهي الكتاب ببحث علاقة مدينة القدس بفريضة الجهاد عبر تتبع تطور الأحداث المتعلقة بمآل فكرة الجهاد في أعقاب سقوط مدينة القدس في أيدي الصليبيين. بحيث كان سقوط المدينة وسط حالة لافتة من لامبالاة أمراء المسلمين. باستثناء محاولة فاطمية باءت بالفشل وغارات لاحقة لم تحدث أي انتصارات يذكر. أما الردود الشعبية لأهل الشام فقد تمثلت في الاستغاثة بالخليفة العباسي. والتي لم تجد صدقاً حتى بعد قيام مملكة القدس اللاتينية. إلى أن أخذت مواقف الأمراء المسلمين بالتحوّل إزاء الانتصارات الصليبية المتتالية وصدور الأمر السلطاني لأمراء الولايات بالجهاد. الذي قام على رسائل الاستغاثة الرسمية من أمير دمشق وغير الرسمية من المدن الساحلية السورية واللبنانية. التي كانت تهاوى على أيدي الصليبيين. وتوجّه الوفود الشعبية من النخب الدينية والاجتماعية والاقتصادية. إلى مخاطبة الجماهير البغدادية.

جرى إعلان الجهاد بعد الضغوطات المتكررة على الخليفة والسلطان السلجوقي. الأمر الذي أحدث تغييراً حاسماً في مواجهة المسلمين للصليبيين. فشرع أمراء الولايات بالجهاد وفق المناطق التي حددها السلطان. إلا أنها فشلت في استعادة إمارة الرّها. وهو ما ساهم في بروز جيل جديد من القادة العسكريين الذين اتخذوا من الجهاد قيمة إسلامية مثالية. بدأت فكرة الجهاد بتحقيق النصر نتيجة مناصرة أمير الموصل.

وشرف الدين مودود. لأمير دمشق طغتكين. والذي تكلم بالانتصار على الصليبيين في موقعة الصنبرة. ثم استمرت فكرة الجهاد وتطورت آلياتها من خلال العمل على توحيد الإمارات المشرقية والشامية. التي لم تنجح في البداية. إلا أنها أخذت تطبق على الأرض من خلال مشروع التوحيد الزنكي القائم على وحدة كل من إمارة الموصل وحلب ودمشق. الذي نفذته كل من عماد ونور الدين زنكي. ومن ثم نجاحه في إحكام قبضته على مصر وما شهدته الساحة السياسية والعسكرية من تطورات متلاحقة حتى تولّى صلاح الدين الأيوبي قيادة معركة الجهاد.

قدمت الدراسة جذور علاقة مدينة القدس بالعرب وشمع بالإسلام من الناحية السياسية والدينية. من خلال الاعتماد على المصادر الأولية سواء تلك العربية الكلاسيكية أو غيرها. إلى جانب عقد المقارنات بين كل من الروايات الإسلامية والاستشراقية. التي ساعدت في الإجابة على المقولات التي تنفي علاقة القدس بالإسلام. والتي كانت قد طغت فترة من الزمن على الدراسات التاريخية المختصة بمدينة القدس.

هناك إشكاليات في كتابة التاريخ الإسلامي. والقدس جزء منه. من بينها اعتقاد العرب والمسلمين أن التاريخ ملك لهم وحدهم. الأمر الذي أدى إلى غياب الاهتمام بالفترات السابقة للإسلام. وهو ما يمكن رؤيته في تاريخ القدس. فقداسة المدينة لا يمكن أن تُقرأ بمعزل عن القداسة لدى أتباع الديانات السماوية الأخرى السابقة للإسلام. وعليه. فإن دراسة تاريخ المدينة تتطلب سبر غور البعد الإنساني والحضاري خلال قراءة تاريخ استقرار الأمم الأخرى التي كانت في المدينة.

هناك عدد من الملاحظات التي لا بد من الإشارة إليها. من بينها استخدام الكاتب مصطلح جند فلسطين في الفصل الثاني (ص ٢٢) دون إعطاء تعريف دقيق له. حيث اقتصر على ذكر عاصمة الجند. مما يوقع القارئ في حالة من الالتباس. فجند فلسطين الذي يختلف عن فلسطين بالمفهوم الحديث. كانت عاصمته بالبداية عمواس ثم اللد ثم الرملة بالثلث الأخير من القرن الثامن الميلادي. ثم إن طبريا كانت عاصمة جند الأردن في الفترة الإسلامية المبكرة.

أيضاً ذكر الكاتب في الفصل الثاني (صفحة ٢٢) مدينة الرملة كعاصمة لجند فلسطين في سياق الترتيبات الإدارية التي قام بها عمر بن الخطاب. مع العلم بأن الرملة كمدينة لم تكن قائمة قبل فترة سليمان بن عبد الملك. الإشارة في نهاية الفصل الثاني إلى تسليم زعماء الطوائف اليهودية دور حماية مقدساتهم

مدينتهم من قبل المسلمين. وهو ما لا يتوافق مع التاريخ. كما أن القدس لم تكن مدينة إسلامية حتى القرن السابع الميلادي. وهو ما لا يتوافق مع التاريخ أيضاً. الإشارة في الفصل الثاني إلى أن القدس كانت مدينة إسلامية حتى القرن السابع الميلادي. وهو ما لا يتوافق مع التاريخ أيضاً. الإشارة في الفصل الثاني إلى أن القدس كانت مدينة إسلامية حتى القرن السابع الميلادي. وهو ما لا يتوافق مع التاريخ أيضاً.

القضية الفلسطينية
أفاق المستقبل

٢

المقاومة الشعبية الفلسطينية
تحت الاحتلال
قراءة نقدية وتحليلية

ليندا طبر و علاء العزة

مؤسسة الدراسات الفلسطينية
Institute for Palestine Studies

القضية الفلسطينية
أفاق المستقبل

٣

السيطرة على الغذاء
السيطرة على الشعب
الكفاح من أجل الأمن الغذائي في غزة

رامي زريق و آن غوف

مؤسسة الدراسات الفلسطينية
Institute for Palestine Studies



سجلات السلب أماكن اللاجئين الفلسطينيين والصراع العربي-الإسرائيلي

مايكل ر. فيشباخ



مؤسسة الدراسات الفلسطينية
Institute for Palestine Studies